أسس اختيار العقاد لشخصياته

إعداد

أميرة احمد السيد محمود

amiraahmed@arth.aswu.edu.eg

أسس إختيار العقاد لشخصياته :

من الممكن إعتبار مشروع العبقريات التى أَلفها العقاد مشروعا شاملا يرصد كافة جوانب النبوغ الإنسانى وسلط الضوء على كفاحهم وتحديهم لظروف بيئاتهم الصعبة .

فلم يكن اختيار العقاد لشخصياته اختيارا عشوائيا بدون عناية أو تأنى أو دراسة ، بل كان اختياراه لكل شخصية من عبقرياته بناءا على تدقيق فى كل تفاصيل الشخصية وتاثيراها الذى تركته بالمجتمع ، وتلك الاخيرة كانت الاهم عند العقاد ، حيث كان بالنسبة له شخصية بلا تاثير فى المجتمع لا تستحق أن تندرج فى عبقريته .

إذن فالعبقرية فى الشخصية سمة لاتنازل عنها عند العقاد ، اذ لابد أن تتميز الشخصية بالفكر العبقرى الذى يميزها عن باقى الشخصيات العظيمة الأخرى التى ترجم لها العقاد .

فالعبقرى عند العقاد هو شخص فريد لا يتكرر كثيرا ، أو بمعنى أدق شخص أتى بفكر جديد أفاد الأمة وغير فى تاريخها .

ولكل عبقرية من عبقريات العقاد سمات مختلفة ومميزة لها ، ولكن لابد لها أن تجتمع على سمة مشتركة فيما بينها ألا وهى الفكر الجديد والتأثير فى المجتمع ، وكل عبقرية أتت بفكر جديد وتأثير مختلف يختلف عن العبقرية الأخرى .

ولعله من الخطأ البين الإعتقاد بأن تصوير الشخصيات الأدبية عمل متاح لكل من ألم ببعض أخبار الأدباء وجوانب من سيرهم ، كلا إن رسم صور دالة عن الشخصية أو تلك ، ومعبرة عن حياتها أصدق تعبير وأوفاه ، يتطلب إستيفاء جميع عناصر الصورة الداخلية والخارجية للشخصية المدروسة : من حيث أصولها ومقوماتها ، وخصائصها وكذا القدرة على رسم حدود فاصلة بين الذات الدارسة والمدروسة وما إلى ذلك .. من متطلبات .

وغنيٌّ عن الذكر أن نشير هنا إلى أن لكل مترجم أسلوبه ، الذى يميزه عن سواه من المترجمين فالأسلوب كما يري العقاد هو الرجل ، وقبل الحديث عن أسلوب "العقاد" فى بناء الشخصية لا مناص من الإشارة أولًا إلى أسس اختياره لها [١].

* ويلاحظ أول ما يلاحظ الدارس لشخصيات العقاد إلحاح مؤلفها على التنبيه إلى أسس إختيارها بما يدل على أن التراجم عموما ليست هدفه بقدر ما كان ينزع إلى دراسة شخصيات مخصوصة وكأن العقاد كان لا يحب أن يضيع وقته ومجهوده على من لا يستحق كما ذكرنا آنفا . فالعقاد لا يتنازل أبدا عن معياريه الا وهما "

أ. إبراز الحق الضائع .

ب. إبراز الحقائق المجهولة " [٢]

والعقاد بتحديده لهذين المعيارين يكون قد أعفى نفسه تماما من تسليط الضوء على معاصرين لشخصياته ومتقدمين عنهم كان لهم أثرهم على الحركة الأدبية والنقدية قديما وحديثا دون أن يثير حفيظة المتعصبين لهم أو عليهم .

وينظر بعض النقاد إلى الأساسين الذين وضعهما العقاد فى كتابة التراجم على أنهما إضافة لما تواضع عليه رواد هذا الفن فى تحديد شروط المترجمين لم يسبق العقاد إليها أحد.

على أن شرط العقاد هذا خلق فئة من الشخصيات بينها قواسم مشتركة حتى وإن بدت فى ظاهر الأمر متنافرة كشخصية " عمر بن الخطاب" و"عمر بن أبى ربيعة ".على أن المجال هنالا يتسع لذكر هذه القواسم المشتركة . [٣]

---

[١] – عبقريات العقاد الإسلامية فى عيون الناقدين .(مقال نشر فى مجلة الأدب الإسلامى) عدد (١) . ١٤١٤ه .

[٢]– عبقريات العقاد الإسلامية فى عيون الناقدين .(مقال نشر فى مجلة الأدب الإسلامى)عدد ١ بتاريخ ١٤١٤ه .

[٣] – المرجع نفسه .

فإبراز الحق الضائع إذن والكشف عن الحقيقة المجهولة هما أبرز مقومين اعتمد عليهم العقاد فى إختيار أعلامه ، ومن ثم فالذين أخذوا من الحياة والناس أقل مما استحقوا فازوا بأوفى نصيب من إهتمام العقاد وعطفه حتى غدت قضيتهم قضيته فطفق يرفع الغبن عنهم ويرد لهم الاعتبار بكتابة صفحات مشرقة فيهم بعد أن طواها الجهل بها والحيف عليها ، ولعل اللافت فى دراسة العقاد لبعض الشخصيات أنه كتبها بانفعال زائد أحيانا ، مما يعكس مكانة هذه الشخصيات من نفسه وربما بباعث إحساسه بهذا الواجب نحوهم .(*)

وبالمقابل إذا ما كانت سيرة العلم واضحة لا خفاء فيها ولا ظلم ، فلا داعى لدراسة صاحبها ، فالعقاد مثلا لم يترجم "لأبى تمام " رغم تقديره لمكانته لأنه لم يكن شاعرا مغبوناً ولا عاش مجهول القدر فى مختلف الأزمان ، بل لعله أصاب من الرعاية والإعتراف بالفضل فوق حقه أو فوق ما أصاب معاصروه على التحقيق ، كذلك ليس فى " أبى تمام " ناحية تتنازعها الأفهام والبدائه الفنية [١] و أظنه يقصد الخصومة النقدية الواسعة التى ترجمت إلى مؤلفات على غرار ما كتب " الصولى والآمدى " وسواهما والنقاد فيه بين متعصب له ومتعصب عليه .

كما أولى العقاد عناية كبيرة فى تراجمه بالشخصيات التى حسنت نياتهم فى خدمة الإنسان وكانوا من أجل هذا جديرين بالكتابة والتوقير وبخاصة فى العصر الحديث واعتماد العقاد على هذا الأساس فى إختياره للشخصيات التى ترجم لها ، يدل على مدى إنسانيته وسعيه لتثمين هذه القيم الإنسانية العامة وتعميمها وقدرته العجيبة فى نفس الوقت على الإضافة .[٢]

إذا كان التاريخ يهتم ببحث الحياة الإنسانية وتمحيص حقائقها وإجلاء غموضها فى أى جانب من جوانبها ، فإن العقاد يبحث فى حياة إنسان متميز ويسعى لكشف

---

*– كما حدث فى كتابه " أبو الشهداء ، فقد كتبه وفى نفسه مغالبة عنيفة للبكاء ، وكذا مقالاته فى رثاء المازنى والنقراشى وغاندى وسعد زغلول وسواهم ، المرجع نفسه ، ص١٢٠ .

١ – يسألونك ، عباس العقاد ، ص٥٨ ، ط٢ ، دار الكتاب المصرى اللبنانى ، ١٩٩٤ .

٢ _ المرجع نفسه .ص ٥٩.

النقاب عن ما يتوفر من أسراره وأخباره ، مع الإشارة إلى الأحداث والحوادث التى وقعت له ، سواء التى تسبب فيها أو التى حدثت فيها على الرغم منه لأثرهما البين فى حياته وحياة من يتصل به بشكل أو آخر .

ونظرا لأهمية حياة بعض المتميزين ، عمد العقاد وغيره ممن توفرت لديهم القدرة العقلية والحس التاريخى إلى تدوين هذه الحيوات وتسجيلها بغرض تخليدها وتمجيد أصحابها ، وبعث الحياه فيها بأشكال مختلفة حسب فلسفتهم فى الحياة وما يتوفر لهم فيها من وسائل .

ومهما يكن من أمر فإن فن التراجم مر بمراحل كثيرة حتى بلغ مرحلة النضج التى إنتهت إليها السيرة الحديثة ، ذلك أن تخليد حياة الأعلام وآثارهم يمتد إلى أعرق الحضارات الإنسانية تاريخًا كالحضارة المصرية والبابلية وسواها [١] ، تشهد على ذلك نقوشهم ومخطوطاتهم ورسوم قبورهم وما إلى ذلك من إشارات .

كما لم يغفل عرب الجاهلية عن تسجيل أيامهم ووقائعهم وحروبهم ، وفى ذلك دلالة واضحة على مقدار إحساسهم بالتاريخ على الرغم من عدم اِستقرارهم وأميَّتهم ، والحق أن الإحساس بالتاريخ ميزة كسائر المزايا الإنسانية التى يتفاوت فيها الأفراد ، ومجال تتباين فيه الأمم والجماعات [٢] .

ويعد المؤرخون الإحساس بالتاريخ وحده هو ما دعا للإهتمام بدراسة الشخصيات فى الشرق والغرب قديما وحديثا بل قضت بذلك دواعى أخرى كثيرة كالحاجة إلى تزجية أوقات الفراغ والسمر و إمتاع الجمهور بالمثير من الحكايات ورسم البسمة بالأحاديث الفكهة ، ثم إن سيطرة النزعات الروحية التصوفية والزهد

---

١ – فن السيرة ،إحسان عباس ، ص٩ ، و انظر: التراجم والسير ، محمد عبد الغنى حسن ، ص٦، ط٢ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٩.

٢ – فن السيرة الذاتية والغيرية فى ضوء النقد الأدبى ، عبد اللطيف محمد السيد الحريري ، ص٣٥ ، ط٣ ، القاهرة ١٩٩٦ .

والتنسك عند العرب وقد كثر هذا النوع من السير فكتب "ابن مخلد والمقدسى وسواهما سيرة " عمر ابن عبد العزيز " مثلا كنموذج للتقوى .

وبالمقابل انتشرت هذه السير فى أوربا المسيحية لاسيما فى القرون الوسطى كسيرة القديسة " كولمبيا " وسيرة القديس " نتونى" وسواهما ، فأدى ذلك إلى ظهور سير وقصص بعض النساك والعباد وانتشارها على سبيل البحث عن النموذج ، واستلهام العظات والعبر ، ولعل هذه الغاية ركز عليها القرآن فى سرده لقصص الأمم البائدة .

ولذلك أصبح قسم من هذه مجموعة من المناقب والأمثال التى يتأدب بها التأدبون وتستغل للوعظ ، وهى غاية من غايات التاريخ كما يري " ابن خلدون " و " ابن حزم " ولم يكن نقصان الجانب التاريخى فى هذه السير خدمة للجانب الفنى بل نزوعا غلى الغاية التى ألفت من أجلها [١].

عبقرية الـــ (نحن) :

العبقرية عند العقاد تنمو على البذل والعطاء، ولا تتورم بالنهب أو السلب أو الجور على حقوق غيرها حتى تنفجر؛ باختصار.. عظمة العبقري عند العقاد هي التي تقول (نحن) ولاتقول (أنا) مبتورة الجذور والفروع عما حولها، وحتى لو سمعت منها (أنا) فلا تفهم من معناها إلا (نحن).

والعقاد حين يكتب عبقرياته.. لا يكتفي بالعرض الفوضوي أو المنظم تنظيماً آلياً أو شبه آلي، بل ينسق الملامح البارزة في كل صورة، وينفخ فيها من روحه، وروح العبقري موضوع الدراسة، فيحييها في نفوس قرائه حتى يتعاطفوا مع عبقريته.. فيجدوا في نفوسهم بعض فضل من فضلها، ويلموا ببعض جمل من لغتها. ومن ثمّ يشعر القارئ بالغبطة لأنه يدرك أنه ارتفع فوق نفسه، ويحلق في أفق أعلى مما اعتاد العقاد أن يحلق فيه من آفاق، بل ويمتلئ من العبقرية بأكثر مما أراد العقاد له،

[١] – فن السيرة ، إحسان عباس ، ص١٢ –١٨ .

ويلقن عن آيات هذه العبقرية أكثر مما لقنه العقاد.. ذلك لأن العقاد في عبقرياته لا يقصر خطابه على عقل قارئه[١٠]

بل يحرك كل حياته ويستجيش كل ما تشتمل عليه هذه الحياة من شعور و خيال، وبداهة وتفكير.

والعقـــاد يبرز عبقرياته كما يبرز كتّاب المآسي أبطالهم فيستسلمون إليهم، ومن هذا التشيع لبطل المأساة تتطهر النفوس من أدرانها، وهذا الجانب هو الذي يحركه العقاد في نفوس قراء عبقرياته، فيتشيعون معه إلى جانب العبقرية التي يكتب عنها بالقدر الذي يمضي بهم إليه، وكثيراً ما يذهبون في التشيع لهذا العبقري إلى أبعد ممـــا كان يريد العقاد، والسبب في هذا أسلوب العقاد وتعبيره عن أفكاره – كما يتفق أغلب نقاد العقاد – ومؤرخيه، فما من عبقرية من عبقرياته إلا وهي قصيدة شعريـــــة ينقصها الوزن والقافية ولكن لا ينقصها صدق الشعور ولا جمال التعبير الذي يكاد أن يدفع الإنسان إلى التغني بها:

وبهذا المنهج الذي توصلنا به إلى فهم عبقريات العقاد المعروفة، وهي: (عبقرية محمد)، و(عبقرية الصديق)، و(عبقرية عمر)، و(عبقرية الإمام)، و(عبقرية خالد) كتب العقاد عبقرياته.

لكن العقاد – كما قلنا – حين يكتب العبقريات، غيره حين يكتب الشخصيات. وربما نلمح هذا الفرق عندما نقرأ تقديمه " لمعاوية بن أبي سفيان "كشخصية.. فالعقاد في تناوله لهذه الشخصية فرّق بين القدرة والعظمة، بين الشخصية والعبقرية، حين قال: (أما وصف الرجل بالقدرة لأنه مقتدر على بلوغ مقاصده، واحتجان منافعه والإضرار بغيره، ولكن إذا وصف بالعظمة فإنما يوصف بها لفضل يقاس بالمقاييس الإنسانية العامة، وخير تغلب فيه نية العمل للآخرين على نية العمل للعامل وذويه. ولعلنا نقترب من توضيح الاصطلاح إذا نقلنا التفرقة من القدرة

---

[١] – مجلة العربى . مقالات مجمعة بعنوان (الذكرى التاسعة والثلاثون لرحيل العقاد) أ. سامح كريم . مارس ٢٠٠٣.

والعظمة إلى التقدير والتعظيم. فنحن نقدّر الإنسان بمقداره عظيما كان أو غير عظيم. بل نقدّر الأشياء بمقاديرها ولو لم يكن لها عمل، ولم تكن من وراء العمل نية.[١]

ولكننا إذا عظمنا الإنسان فإنما نوجب له التعظيم علينا لأنه يعنينا، ويستحق إكبارنا ويرتفع إلى المكانة التي يلحظها علينا لأنه يعنينا، ويستحق إكبارنا ويرتفع إلى المكانة التي تلحظها الإنسانية بأسرها وتعود عليها في منافعها وخبراتها.(فكل عظيم قدير ولكن ليس كل قدير عظيما. والعظمة قدرة وزيادة، ومعاوية قدير وليس بعظيم) بهذه العبارة حدد العقاد الفرق بين الشخصيات المقتدرة ، والعبقرية العظيمة [٢] .

وفيما يلى أمثلة توضيحية من العبقريات نستطيع أن نرى من خلالها الأسباب التى إستفزت قلم العقاد للكتابة عن الشخصية :

أولا : عبقرية محمد (ﷺ) :

عبقرية محمد كتاب لتقدير عبقرية الرسول عليه الصلاة والسلام بالمقدار الذى يدين به كل إنسان ولا يدين به المسلم وكفى ، وبالحق الذى يبث له الحب فى قلب كل إنسان، وليس فى قلب كل مسلم وكفى [٣] .

فمحمد هنا عظيم، لأنه قدوة المقتدين فى المناقب التى يتمناها المخلصون لجميع الناس، عظيم لأنه على خلق عظيم، وإيتاء العظمة حقها لازم فى كل آونة وفى كل قبيلة ولكنه فى هذا الزمن وفى عالمنا هذا ألزم منه فى أزمنة أخرى، لسببين متقاربين لا لسبب واحد:

---

[١] – مجلة العربى . مقالات مجمعة بعنوان (الذكرى التاسعة والثلاثون لرحيل العقاد) أ. سامح كريم . مارس ٢٠٠٣ .

[٢] – انظر المرجع نفسه .

٣– عبقرية محمد . عباس العقاد .ص١٩.ط١، دار نهضة مصر للطباعة .القاهرة .

-أحدهما أن العالم اليوم أحوج مما كان إلى المصلحين النافعين لشعوبهم وللشعوب كافة، ولن يتاح لمصلح أن يهدى قومه وهو مغموط الحق معرض للجفوه والكنود.

-والسبب الآخر أن الناس اجترأوا على العظمة فى زماننا بقدر حاجتهم إلى هدايتها، فإن شيوع الحقوق العامة قد أغرى أناسا من صغار النفوس بانكار الحقوق الخاصة، حقوق العلية النادرين الذين ينصفهم التمييز وتظلمهم المساواة، والمساواة هى شرعة السواد الغالية فى العصر الحديث. [١]

لهذا كان تقدير محمد (ﷺ) بالقياس الذى يفهمه المعاصرون ويتساوى فى إقراره المسلمون وغير المسلمين، نافعًا فى هذا الزمن الذى إلتوت فيه مقاييس التقدير.

إنه لنافع لمن يقدرون محمدًا (ﷺ) وليس بنافع لمحمد أن يقدروه، لأنه فى عظمته الخالدة لا يضار بإنكار، ولاينال منه بغي الجهلاء إلا كما نال منه بغى الكفار.

وإنه نافع للمسلم أن يقدر محمدًا بالشواهد والبيانات التى يراها غير المسلم، فلا يسعه إلا أن يقدرها ويجري على مجراه فيها، لأن مسلما يقدر محمدا على هذا النحو يحبه مرتين [١]:

مرة بحكم دينه الذى لا يشاركه فيه غيره، ومرة بحكم الشمائل الإنسانية التى يشترك فيها جميع الناس وحسبنا من عبقرية محمد (ﷺ) أن نقيم البرهان على أن محمدا عظيم فى كل ميزان:

عظيم فى ميزان الدين، وعظيم فى ميزان العلم، وعظيم فى ميزان الشعور، وعظيم عند من يختلفون فى العقائد ولا يسعه أن يختلفوا فى الطبائع الآدمية، إلا أن

---

[١] – المرجع نفسه ، ص ١٩ .

يرينا العنت على الطبائع فتنحرف عن السواء، وهى خاسرة بانحرافها، ولا خسارة على السواء، فكان محمدًا مستكملا للصفات. [١]

للصفات التى لاغنى عنها فى إنجاح كل رسالة عظيمة من رسالات التاريخ.

كانت له فصاحة اللسان واللغة، فكان له القدرة على تأليف القلوب وجمع الثقة، وكانت له قوة الإيمان بدعوته وغيرته البالغة على نجاحها.

فمحمد فى نفسه عظيم بالغ فى العظمة، وفقا لكل مقياس صحيح، يقاس به العظيم عند بنى الإنسان فى عصور الحضارة.

إن التاريخ كله بعد سيدنامحمد متصل به مرهون بعمله، إن حادثاً واحداً من أحداثه الباقية لم يكن ليقع فى الدنيا كما وقع لولا ظهور محمد وظهور عمله.[٢]

فلا فتوح الشرق والغرب، ولا حركات أوروبا الوسطى، ولا الحروب الصليبية، ولا نهضة العلوم بعد تلك الحروب، ولا حادثة قومية أو عالمية مما يتخلل ذلك جميعه كانت واقعة فى الدنيا كما وقعت لولا ذلك اليتيم الذى ولد فى شبه الجزيرة العربية بعد خمسمائة وإحدى وسبعين سنة من مولد المسيح.

كان التاريخ شيئا فأصبح شيئا آخر، توسط بينهما وليد مستهل فى مهده بتلك الصيحات التى سمعت فى المهود عداد من هبط من الأرحام إلى هذه الغبراء ما أوضحها حينئذ صيحات فى الهواء، وما أقواها بعد أثراً فى دوافع التاريخ، فما أضخم المعجزة ، وما أولانا أن نؤمن بها على ذلك النحو أجيال وأجيال.

واليوم ونحن نضع كتابنا هذا عن «عبقرية محمد» بين يدي القراء؛ لا نقول إننا قد استوفيناه كما أردناه، ولا إننا فصلنا فيه الغرض الذي توخيناه ... ولكننا نقول

---

[١] – عبقرية محمد . عباس العقاد .ص٢٣ .

[٢]– المرجع نفسه ص٢٦.

إننا التزمنا فيه الباعث الذي أوحى الاقتراح بتأليفه لأول مرة. كأننا شرعنا في كتابته مساء ذلك اليوم قبل ثلاثين سنة.[١]

فكتبناه ونحن نستحضر فى الذهن تبرئة المقام المحمدي من تلك الأقاويل، التي يلغط بها الأغرار والجهلاء عن حذلقة أو سوء نية، ونظرنا اتفاقًا، فإذا بأطول الفصول فيه الفصلان اللذان شرحنا فيهما موقف محمد من الحرب ومن الحياة الزوجية؛ لأنهما كانا مثار اللغط تلك الليلة على مقربة من ساحة المولد، وكانا مثار اللغط في كل ما ردده سفهاء الشانئين من الأصلاء والمقتدين في هذا الباب...

فسيرى القارئ أن «عبقرية محمد» عنوان يؤدي معناه في حدوده المقصودة، ولا يتعداها. فليس الكتاب سيرة نبوية جديدة، تضاف إلى السير العربية والإفرنجية، التي حفلت بها «المكتبة المحمدية» حتى الآن؛ لأننا لم نقصد وقائع السيرة لذاتها في هذه الصفحات، على اِعتقادنا أن المجال متسع لعشرات من الأسفار في هذا الموضوع، ثم لا يقال إنه أُستنفد كل الإستنفاد.

وليس الكتاب شرحًا للإسلام أو لبعض أحكامه، أو دفاعًا عنه، أو مجادلة لخصومه ... فهذه أغراض مستوفاة في مواطن شتّى، يكتب فيها من هم ذووها ولهم دراية بها وقدرة عليها.[٢]

وقد جار الفهم الخاطئ للمساواة على حقوق العظماء السابقين، كما جار على حقوق العظماء من الأحياء والمعاصرين، ثم أغرى الناس بالجور بعد الجور غرورهم بطرائف العصر الحديث، واعتقادهم أنه قد أتى بالجديد الناسخ للقديم في كل شيء ... حتى في ملكات النفوس والأذهان، وهي مزية خالدة لا ينسخ فيها الجديد القديم.

---

[١] – المرجع نفسه ص٥٠ .

[٢] – عبقرية محمد . عباس العقاد .ص٢٣ .

يرون أن البخار يلغي الشراع، وربما كان الإختراع السابق أدل على القدرة، وأبين عن الفضل من الإختراع الذي تلاه، ولم يكن ليتلوه لولا ما تقدم عليه...

وينظرون إلى أقطاب الدنيا كأن الأصل في النظر إليهم أن يتجنوا عليهم ويثلبوا كرامتهم، ولا يثوبوا إلى الاعتراف لهم بالفضل إلا مكرهين ... بعد أن تفرغ عندهم وسائل التجني والثلب والافتراء.

هذه الآفة حِطَّةٌ تهبط بالخلق الإنساني إلى الحضيض، وتهبط بالرجاء في إصلاح العيوب الخلقية والنفسية إلى ما دون الحضيض...

فماذا يساوي إنسان لا يساوي الإنسان العظيم شيئًا لديه؟ ... وأي معرفة بحق من الحقوق يناط بها الرجاء إذا كان حق العظمة بين الناس غير معروف؟ ... وإذا ضاع العظيم بين أناس، فكيف لا يضيع بينهم الصغير؟[١]

لهذا كان تقدير محمد بالقياس الذي يفهمه المعاصرون ويتساوى في إقراره المسلمون وغير المسلمين، نافعًا في هذا الزمن الذي الْتَوَتْ فيه مقاييس التقدير...

إنه لنافع لمن يقدِّرون محمدًا، وليس بنافع لمحمد أن يقدِّروه؛ لأنه في عظمته الخالدة لا يضار بإنكار، ولا ينال منه بغي الجهلاء، إلا كما نال منه بغي الكفار....

إن عمل محمد لكافٍ جد الكفاية لتخويله المكان الأسنى من التعظيم والإعجاب والثناء...

إنه نقل قومه من الإيمان بالأصنام إلى الإيمان بالله، ولم تكن أصنامًا كأصنام يونان، يحسب للمعجب بها ذوق الجمال إن فاته أن يحسب له هدى الضمير ... ولكنها أصنام شائهات كتعاويذ السحر التي تفسد الأذواق وتفسد العقول ... فنقلهم محمد من عبادة هذه الدمامة إلى عبادة الحق الأعلى ... عبادة خالق الكون الذي لا خالق سواه، ونقل العالم كله من ركود إلى حركة، ومن فوضى إلى نظام، ومن

---

[١]- عبقرية محمد . عباس العقاد .ص ٢٤ .

مهانة حيوانية إلى كرامة إنسانية، ولم ينقله هذه النقلة قبله ولا بعده أحد من أصحاب الدعوات...

إن عمله هذا لكافٍ لتخويله المكان الأسنى بين صفوف الأخيار الخالدين، فما من أحد يضن على صاحب هذا العمل بالتوقير على اسم إنسان[١] .

إلا أننا نمضي خطوة وراء هذا، حين نقول إن التعظيم حق «لعبقرية محمد» ولو لم تقترن بعمل محمد.

لأن العبقرية قيمة في النفس قبل أن تُبرزها الأعمال، ويكتب لها التوفيق، وهي وحدها قيمة يُغالى بها التقويم...

فإذا رجح بمحمد ميزان العبقرية، وميزان العمل، وميزان العقيدة؛ فهو نبي عظيم وبطل عظيم وإنسان عظيم.

وحسبنا من كتابنا هذا أن يكون بَنَانًا تومِئ إلى تلك العظمة في آفاقها، فإن البَنانَ لأقدر على الإشارة من الباع على الإحاطة، وأفضل من عجز المحيط طاقة المشير.[٢]

ثانيا : عبقرية عمر:

إن أعسر شئ أن تحاسب رجلا كان أشد أعداءه لا يبلغون من عسر محاسبته بعض ما كان يبلغه هو من محاسبة نفسه ، وأحب الناس إليه. [٣]

ذلك رجل قل أن يجور عن القصد وهو عالم بجوره وقل أن يتيح لأحد أن يكسب دعوة الانصاف على حسابه ،إلا أن يكسبها أيضا على حساب الحق والنقد الأمين .

---

[١] _ المرجع نفسه . ص٢٣.

[٢] – المرجع نفسه. ص٨ .

[٣] – عبقرية عمر . عباس العقاد ، ص٧، دار الحياة للنشر والطباعة ، القاهرة ٢٠١٤.

وعلم الله لو وجدت شططا فى أعماله الكبار، لكان أحب شئ إلى أن أحصيه وأطنب فيه وأنا ضامن لذلك أن أرضى الاثرة وأرضى الحقيقة ، ولكنى أقولها بعد تمحيص لا مزيد عليه فى مقدورى ،أن هذا الرجل العظيم أصعب من عرفت من عضماء الرجال نقدا ومواخذة ، ومن فريد مزاياه أن فرط التمحيص وفرط الاعجاب فى الحكم له أو عليه يلتقيان. [١]

وعمر بعدُ رجل المناسبة الحاضرة فى العصر الذى نحن فيه، لأنه العصر الذى شاعت فيه عبادة القوة الطاغية، وزعم الهاتفون بدينها أن البأس والحق نقيضان، فإذا فهمنا عظيمًا واحدا " كعمر بن الخطاب " فقد هدمنا دين القوة الطاغية من أساسه، لأننا سنفهم رجلا كان غاية فى البأس، وغاية فى العدل، وغاية فى الرحمة.

وفى هذا الفهم ترياق من داء العصر يشفى به من ليس بميئوس الشفاء. [٢]

وإنما الـــأمر الميسور فى التعريف بهذا الرجل العظيم أن خلائقه الكبرى كانت بارزة جدا لا يسترها حجاب، فما من قارئ ألم بفذلكة صالحه من ترجمته إلا استطاع أن يعلم أن عمربن الخطاب كان عادلا وكان رحيما ؛ وكان غيورا؛ وكان فطنا؛ وكان وثيق الإيمان عظيم الإستعداد للنخوة الدينية.

والأعجب من هذا التوافق بين صفاته أن الصفة الواحدة تستمد عناصرها من روافد شتى، ولا تستمدها من ينبوع واحد ، ثم هى مع ذلك متفقة لا تتناقض، متساندة لا تتخاذل، لا تعرف التعدد والتكاثر فى شئ.[٣]

مما سبق نرى أننا أمام رجل عظيم من معدن العبقرية والامتياز بين الناس على اختلاف العصور،

---

[١] – المرجع نفسه . ص ٨ .

[٢] – المرجع نفسه ص٨ .

[٣] – المرجع نفسه ص١٩.

إذا هو صاحب مناقب وأخلاق من أنبل الصفات الانسانية، توافقت فيه على قوة نادرة وتلاقت فيه إلى غاية واحدة، وهى إحقاق الحق واضحاض الباطل، ووسمه بسمة الجندية المجاهدة التى تحمى الحدود للناس وتحميها من الناس، فهو فى طليعة من يحمى وفى طليعة من يحتمى على السواء.[١]

ورسخت فى طويته خليقة المساواة فى العدل حتى اصبحت كالوظيفة العضوية التى لا تنفصل عنه.

وكانت فيه خشونة الأقوياء الصرحاء، ولكنه كما قال عارفوه من الصحابة: باطنه خير من ظاهره، أو كما قال فيه الصديق من كلام فحواه: إن مبغضيه هم المبغضون فى الخير.

وكان له محبون من كرام الناس لا يعدلون بحبه حب أحد من أمثاله، فكان عبدالله بن مسعود يقول: لو أعلم عمر كان يحب كلبا لاحببته، والله إنى لأحسب العضاه قد وجدت فقد عمر.[٢]

وقال عنه خالد بن الوليد عندما قال له أحد محبينه عند عزله : اِصبر أيها الأمير إنها الفتنة ، فقال خالد أما في عهد ابن الخطاب فلا .[٣]

ثالثا: عبقرية خالد :

تقدير النبى (ﷺ) "لخالد بن الوليد" على التخصيص كان آية الآيات فى هذا الباب ، لأنه "عليه السلام "لم يكبره إكبار السياسى الذى يستجمع القوة حواليه وينزل كل زعيم منزلة قومه من الوفره والجاه والعتاد، وإنما أكبره، لأنه عرف أقصى مستطاعه قبل أن يظهر من مستطاعه كثير، وسماه (سيف الله) وبينه وبين الوقائع التى اِستحق بها ذلك اللقب الجليل بضع سنوات، بل سماه سيف الله وهو قافل من

---

[١] – عبقرية عمر . عباس العقاد . ص ٢٠ .

[٢] – المرجع نفسه ص٢١.

[٣]– المرجع نفسه . ص ٢١ .

معركة يتلقى المسلمون من عادوا منها بالنكير والتشهير، ويحثون فى وجوههم التراب ويصيحون بهم أينما وجدوهم: يا فرار . يا فرار . فررتم من سبيل الله .[١]

لم يكبر النبى ﷺ "خالدا" كما أكبر أبا سفيان تألفا له ورعيا لمكانته فى قومه ولكنه أكبره للصفة التى سيوصف بها فى تاريخ الاسلام بعد اِهتدائه إليه ببضع سنوات .

أكبره ، لأنه " سيف من سيوف الله " والناس لا يرون إلا الهزيمة والارتداد ، ولم يكن النبى مولّيه القيادة فى المعركة التى اِرتد منها بجيش المسلمين ، فيقول قائل إنه ينصر المسئول عن اختياره ، وهو من ثم المسئول عن ارتداده أو فراره . ولكنه ولى آخرين وترك اختياره بعدهم لمشيئة إخوانه فى الجيش ، فاختاروه بعد ذلك مجمعين .[٢]

وقد صحب خالد النبى ثلاث سنوات وعهد إليه النبى الكثير من الاعمال الصغيرة وأشركه فى بعض الأعمال الكبيرة ، ومنها غزوة مؤته وحنين ، وسرية بنى جزيمة ،فما من هذه الأعمال الكبيرة عمل واحد لم يتسع فيه المقال للشانئ والحاسد ولم ينظر إليه الناظر من وجهين متعادلين تارة إلى جانب العذر وتارة إلى جانب الملام .[٣]

ولو أنه " رضى الله عنه " قضى نحبه فى السنة العاشرة أو بعد ذلك بقليل لعجب المؤرخون كيف سمى " سيف الله " وفيما اِستحق هذا اللقب لا يعلوه لقب فى الاسلام ، ولكن النبى وحده قد عرف قبل الحادية عشرة من الهجرة أنه حقيق بذلك اللقب على أوفى مداه ، سماه به قبل أن يهزم المرتدين ، وقبل أن يهزم الفرس والروم ، وقبل أن يصون للاسلام جزيرة العرب ويضم إليها العراق والشام ، وهى الاعمال الجسام التى من أجلها يدعى اليوم سيف الاسلام .

---

[١] –عبقرية خالد بن الوليد . عباس محمود العقاد . ص ٨.

[٢] – عبقرية خالد بن الوليد . عباس محمود العقاد . ص ٩ .

[٣] – المرجع نفسه . ص ١٠ .

وإنما هو البصر العلوى الذى يلمح هذه القدرة فى معدنها حيث ينظر الناس فيرون خالدا مرتدا من غزة مؤتة أو ماخوذا مع الخيل وهى تولى فى أول المعركة من ميدان حنين ، أو صانعا فى سرية بنى جزيمة ما يبرأ من النبى عليه السلام .[١]

ولهذا ينبغى أن توزن هذه الاعمال بميزانها الصحيح ، لإقامة خالد نفسه فى مقامه الصحيح ، فهى ولا ريب من المعدن الذى نجمت منه حروب الردة وفتوح العراق والشام .

واجمال القول فى توفيق خالد بن الوليد أنه لم تعوزه قط صفة منصفات القائد الكبير المفطور على النضال ، وهى الشجاعة والنشاط والجلد واليقظة وحضور البديهة وسرعة الملاحظة وقوة التاثير .

كان يضع الحاجة فى موضعها ساعة الحاجة إليها .. فكان يحارب بالصفوف كما كان يحارب بالكراديس ، وكان يحارب بالكمين والكمينين كما يحارب أحيانا بغير كمين ، وكان يستخدم التورية والمباغتة والسرعة على أنماط تختلف باختلاف الدواعى والاحوال .[٢]

وقد علم أن تمزيق الجيوش أجدى فى الحرب من الحصار والاحتلال وعلم أن الخبر قوة وسلاح ، فكان يستطلع أخبار ولا يتيح له أن يستطلع خبرا من أخباره يفيده أو يحميه من بأسه .

وأجدى من هذا جميعه أنه كان لا يغفل عن القوة الادبية يعززها ما استطاع فى جيشه ويضعضها ما استطاع فى جيش عدوه .[٣]

فكان هو نفسه مادة لهذه القوة الأدبية تجيش بها نفوس أنصاره فيثقون بالفوز ويأمنون خطر الهزيمة ، وتشيع فى نفوس أعدائه فيسرى إليهم الذعر وتفارقهم اليقة والطمأنينة .

---

[١] –المرجع نفسه . ص ١٢.

[٢] – عبقرية خالد بن الوليد . عباس محمود العقاد. ص ١٣.

[٣] – المرجع نفسه .ص ١٤.

وإلى هذا ، كان يعتمد على قوة الإيمان وهمة الامل ، فيتعهد جيشه بالعظات قبل القتال وفى أثناء القتال لايفوته وهو مشغول بالضرب والطعن والتوجيه والمراقبة أن يطوف بين الصفوف للتذمير والتشجيع فيعمل ويقول القول الذ ى هو ضرب من العمل ، فاذا قال " إن الصبر عز وإن الفشل عجز إن الصبر مع النصر " فلست هى أصداء تمر بالهواء ، ولكنها فى العز والصبر ماثلان للعيان يسريان بالقدوة منه إلى كل مسمع وجنان . [١]

وإلى هذا وذاك كان يثير المنافسة الكريمة فى صدور جنده وأعوانه ، فيدعهم إلى التمايز والتناظر لينفس فيهم مع عزيمة الايمان عزيمة أخرى من حب الفخار وخوف المسبة والعار .

ويتخذ من الغيرة على العرض مددًا لهذه العزائم التى تواجه الموت على حد قوله كما تواجه الحياة ، فإذا بالرجل الفرد يبلى فى قتاله ما ليس يبليه عشرات .[٢]

---

[١] – المرجع نفسه . ص ١٥ .

[٢] – المرجع نفسه . ص ٢٠ .

المصادر والمراجع

١. عبقريات العقاد الإسلامية فى عيون الناقدين .(مقال نشر فى مجلة الأدب الإسلامى) عدد (١) . ١٤١٤ه .

٢. يسألونك ، عباس العقاد ، ص٥٨ ، ط٢ ، دار الكتاب المصرى اللبنانى ، ١٩٩٤ .

٣. فن السيرة ،إحسان عباس ، ص٩ ، و انظر: التراجم والسير ، محمد عبد الغنى حسن ، ص٦، ط٢ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٩.

٤. فن السيرة الذاتية والغيرية فى ضوء النقد الأدبى ، عبد اللطيف محمد السيد الحريري ، ص٣٥ ، ط٣ ، القاهرة ١٩٩٦ .

٥. مجلة العربى . مقالات مجمعة بعنوان (الذكرى التاسعة والثلاثون لرحيل العقاد) سامح كريم . مارس ٢٠٠٣ .

٦. عبقرية محمد . عباس العقاد .ص١٩.ط١، دار نهضة مصر للطباعة .القاهرة .

٧. عبقرية عمر . عباس العقاد ، ص٧، دار الحياة للنشر والطباعة ، القاهرة ٢٠١٤.

٨. عبقرية خالد بن الوليد . عباس محمود العقاد .